مفتاح العمّاري

مفاتيح الكنز

نصوص أدبية

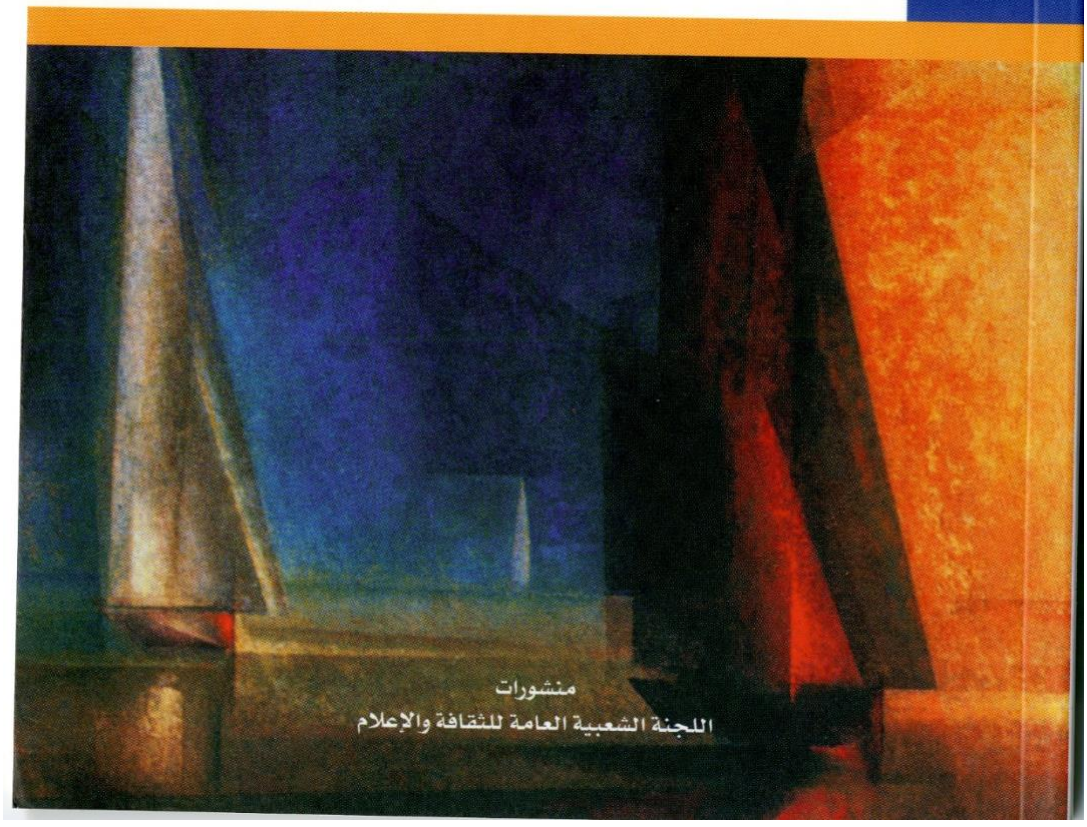

منشورات
اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام

مفتاح العمّاري

مفاتيح الكنز

تأملات في نثر الغابة

سرد

- **مفاتيح الكنز**
- (سرد) قصص وحكايات
- المؤلف: مفتاح العمّاري
- منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة/ ليبيا

الطبعة الأولى

2006/ 2007

- رقم الإيداع المحلي 7056/ 2006
- ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-023-7
- دار الكتب الوطنية/ بنغازي-ليبيا

- الإهداء

إلى الفارس الذي لم يعد صغيرًا،

ابني أحمد

مقدّمة _____

في مديح الحكاية *

كأن الحكاية أنثى جميلة تنمو ســـريعا في حقول فتنتها، لتترك بريقَ الحلم يطفر ســـاحرًا من عينيها، ونضـــارة وجهها الفتيّ، الـذي لا يعبـأ كثيرا بعقـارب الزمن وهي تلـدغ الكـائن الغافل. لأنّها تمضـــي بخفة محســـودة تتقدّمها حرارةُ الكلمات الشـابة، المحمّلة بوهج الشـعر وطاقة الرؤيا وشـفافية الحدس؛ فهي أمّنا ولغتنا الأولى، التي علّمتنا الأسماء والعناوين، وبأجنحة خيالها حلّقنا عاليا في فضـاء العجائب والأسـاطير، واسـتنطقنا غرابة العالم عبر مفرداتها، التي تخرج بســـيطة وحميمة، من أفواه الجدّات في ليل خيامنا وأكواخنا، مصـــحوبة بعواء الريح وموسيقى المطر.

لهذا ظلّت الحكايةُ أنثى السـرد الليلي، التي تبتكر دائمًا كلامًا جديدًا، وأمكنة أخرى مهووسـة بمفاتيح الكنز الضـائع، وغموض الجهات الخفية. تصطاد التجارب الغابرة من ذاكرة السهو، كأنها

ربّة خفاء ماكر، يتّســـع رحمُها لإيواء المجاهل البعيدة، ويغدو خيالها أرضًا خصبة، تنبت الخرافات والأساطير العجيبة.

***

الحكاية: هي المعرفة في هدوئها وصــخبها، في توحشــها البريّ. دليلُ الكائن إلى أرض الإشــارات القصــية؛ تلك التي لم تطأها اللغات بعد.

ولأن الحكاية كنز؛ صـــنع كل منّا ملحمته الصـــغيرة داخل هذا العالم الفســـيح، الذي تشـــكّل متنُه من ســـلســـلة طويلة من المغـامرات العجيبـة، والملاحم التي لا خواتم لهـا. ونحن حين يأخذنا الشــغفُ بفتنة الحكاية فأننا نحاول صــياغة تلك الحكمة المستعصية، التي استدرجتها شهرزاد لمّا جلست ذات ليلة بهدوء لا يعوزه القلق أمام الملك العظيم، في لحظة يفخخها الهلاك من كل جانب ويحيطها الخوف والتوجّس والحذر. لهذا آثرنا هنا مراودة تلك اللحظة المتوحّدة، التي رغم تمظهراتها البسيطة الاّ أنها تنطوي على عمق شـــديد الغور، وعنف متســـتّر، لا حدود لخفائه. تتجاذبه عناصـر متنافرة يبدو فيها الملقي طرفًا محوريًا، وفي نفس الوقت وسيطا ناقلا، كما تمثل في (دنيا زاد) شـقيقة الراوية، التي تحتال على الإصـــغاء بغواية الأذن؛ لكي ترســـل

خطابها إلى المتســلّط مجســدا بهيئة ملك طاغية، تتأجج في داخله بضــراوة نارُ الانتقام. لذا كان على شــهرزاد وقتذاك أن تخمش بأظفارها خيالَ الطاغية لا وجهه، وأن توقظ فيه روحَه النائمة عبر ألف ليلة وليلة، من الترقّب والشــغف والســرد المتواصــل دونما انقطاع، وانتظار المجهول الذي يفضــي إلى مجهول سواه.

***

كانت شــهرزاد وهي تســرد حكاياتها الجامحة تتشــبث إلى أقصى رمق برئة الحياة، وتوصل الليل بليل آخر.
شهرزاد حاضنة الحكايات الفاتنة وهي تتناسل ملتبسة بشقيقاتها النائمات تفتح مع مسـتهل ظلمة الليل كنوز الخيال؛ دونما ارتباك أو تلعثم بهذه التيمة الشــهيرة: "بلغني أيها الملك". كأن الليل وطنُ الحكـايـات الســادرة في لهفـة إلى الخلق والتشــكّل المسـتمرين. مسـتأنسـة بظلمة الكائن مضـاء ببهاء القمر بدرًا، يمارس لعبةَ النمو؛ ليضفي على الفضاء سحره الخاص. فالقمر هذا الكوكب الليلي، الذي اســتأثر الشــعراءُ بمديح فخامته واسـتدرجه العشـاق الهائمين وجدا إلى مجالسـهم وشـرفاتهم،

وضـمّنوه عبارات الغزل ورسـائل لغرام، مضـيفين إليه صـفات شتّى ومجازات لا عديد لها.

***

وهكذا ظل الليلُ يتحقّق مسـتمدا تأنيثه من صـيغة المفرد (الليلة). فهو سـكن ولباس أيضـا. وضـمن هذه الثنائية تقابلت الأضـداد: شـهرزاد الحكاية / وشـهريار السـيف. الحياة مقابل الموت، حيث كان على ليونة الأنثى أن تمتص صـلابة الذكر وتسـتوعب بدهاء خشـونته الظاهرة، بحثا عن ليونة الكامن لتسـكَّ روايتها بلغةٍ شـفيفةٍ وأصـوات حالمة، لا تعوزها طراوةُ النغم وسحر الموسيقى، لكي تستحوذ على شغف الأذن وترفع من وتيرة الإصغاء.

***

إزاء مهارة الأنثى نسّـاجة المعنى بخيوط الكلمات، صـعدت الحكايةُ التي لا تكفّ عن النمو والدوران. الأمر الذي عطّل عمل الموت؛ فظلّ السيّافُ فريسة للسأم، ينتظر دونما جدوى. واقفا بتوتر عند عتبات النهار، يترقّب خاتمة الحياة التي تبدأ مع نهاية

الحكاية. أي في اللحظة تلك التي تتوقّف فيها آلة الســرد عندما تكفّ شهرزاد عن خلق كائناتها الغريبة.

لكن الحكاية وهي تؤثث عالمها كانت قد وظّفت ضــراوة الزمن لصــالحها؛ فلم تعبأ كثيرًا بشــهية الســيف الذي صُــنِع من مادةٍ زائلة، حيث لم يبق له ســوى أن يرضــخ لمشــيئة الصــدأ؛ لتستمر الحكاية.

<.>

طرابلس

ربيع 2000

* معظم النصوص المقترحة في هذا المتن، قدمها المؤلف بصوته ضمن برنامج مسموع، حمل العنوان ذاته: "مفاتيح الكنز" سنة 2001 بإذاعة طرابلس المحلّية.

- **_____ مديحُ الأذى**

إلى ابنتي: لينا

بمناسبة اختفاء كراسة الرسم

في مدينة ما، عندما انتهتْ طفلةُ العامين من تلوين ورقة الرسـم. غمرتها بهجةٌ شـاسـعة وهي تُضـفي على مخلوقاتها بلمسات ناعمة آخر آيات الضوء. حيث تبدّى منزلٌ ريفيّ مصبوغ بطلاء لامع كأنّه خليط من نثارة ذهبٍ وشـمس وموسـيقى. أحاطته الفرشـاة بقوس قزح وحديقة بهاء تجلّت مثل رحم أخضـر نُسـج من نباتات فتنةٍ تسـامت أزاهيرها البنفسـجيُّة والبيضاء والحمراء مشرئبة بعلوّ تجاوز سطح المنزل إلى سماء شفيفة تمازجت زرقتها مع موج دافق لبحر متخف. وغناء كائنات منذابة في سيولة حواس مرحة.

ولكن بعد حين.

بعد أن اختفت أكداسٌ من ساعات رملية تحطّمت عقاربُها دونما هوادة على جلمود الوقت – لم يخطر في خيال الفنانة الصغيرة بأن لوحتها تلك سـتتمزّق بفعل قسـاوة البشـر وحدهم الذين جبلوا على وأد براءة الكائن.

- فَلاَ المنزلُ الريفيّ وهو يحلّق عاليًا في فضـاء الروح بفخامة طائر خرافيّ.

وَلاَ الأمُّ العليلةُ التي استعارت الغيومُ ضحكتها بهيئة قوس قزح.
ولا الحديقة التي من لحم طريّ وعشب بهيج وأحرف تائقة.
ولا مهابة السماء المبلّلة برضاب القلب وهفهفة الخيال .....
كان في مكنتها جميعاً إيقاف آلة الأذى، وهي تنشـــبُ براثنها الدّامية في كائنات النّسغ المقدّس،
لتمزّق الأحلام الناشـئة في مهدها. هكذا كانت ضـراوة الواقع أكبر من أن تحتملها ورقةُ رسم.
لأنّ الطفلة عندما كانت تنمو.
كـان الوحشُ هو الآخر يحمـلُ في داخلـه قوارض من فولاذ وفئران نهمة عوضاً عن الفراشات والعصافير وقوس قزح.
حينها تكسّـر شـيءٌ ما في أحشـاء الفتاة الخائبة التي كانت قبل قليل طفلة العامين، وأدركت بعد لأي أنه لا موطن هنا يمكنه إيواء البراءة في هكذا بيئة استمرأت صناعة الوأد، وصهر جميع الألوان من لدنّ قصـيدة تُذبح. حيث يتعذّر على شـغف فرشـاة الرســم اســتعادة تشــكيل أســماء الطبيعة وإشــارات الكون وإيماءة الكواكب والأبراج بخامات دامية، كما يتعذّر على اليد الواجفة أن تغمس أدواتها في آنية النزيف. فتوقّفت بمشـــيئة الخيبة عن فكرة رســـم العالم. منذ تلك البرهة المقيتة اختفت ملامح مدينة بيضاء خلف ظلال الرصاص، وانحدرت دمعةٌ حارة

اســـتقرت على صـــفحة ال (فبريانو). ففقدت جميع مخلوقات اللوحة عناصــر بهائها، ولم يعد ثمة أحد من الرعايا يظنّ بوجود آلة من وترٍ أو قصـــب تعزف الموســـيقا. إذ اختفى المغنون والشـــعراء والحكماء، وضـــاعوا في أقاصـــي مفازات الحكاية الغامضة لاسيما بعد أن أقفلت جميع أبواب المسارح والمعارض التي روي بأنّها تحوّلت إلى مراتع للغبار. عطنة بروث الفراغ. حتى جُلّ الســكّان الذين ولدوا بعد الخراب قد اعتقدوا – وعلى نحو راسخ – بأنّ الأذى صنو الحياة، فتواطأوا

في بلاهة غريبة من اجل هيمنة الفوضـى وهي تقتلع بلا رحمة الكتب من جذورها، وتخرّب الحدائق والبســاتين. ثم اســتمرأوا سهوا باذخا بحكمة الهلاك.

عندها لم يكن في مقدور قصـــيدة بحجم لامية الشـــنفرى أن تحرّك الحواس التي استأنست شهوة الموت. فوحده الذئب ابن الذئب أمســـى بلا منازع يحملُ في جوفه بذرة الجوع وغريزة العطب.

*لهذا ظلّت شوارع الريح دائمًا تعوي.

فيما قيل والعهدةُ على الراوي:

إنه عندما بلغت ضراوة الحيوان حدًّا لا يُطاق.

أبتكر الرعاةُ دونما جدوى تســـعًا وتســـعين طريقة لترويض الوحش، وتسعة وتسعين اسمًا للمديح.

وتسعة وتسعين نايًا لاقتفاء الكلمة التائهة.

لكن الذئب ظلّ ذئبًا.

وظلّت الشـوارع نهبًا لسـطوة الريح الهوجاء وهي تتشـبّثُ بغبار أخطائها. فيما صــارت الكلمة اليتيمة التي هي اســمٌ من أربعة أحرف تنتقلُ من فمٍ إلى فم.

ومن قافلة إلى أخرى، حتى غدت حشدًا من كلمات خفيّة تتوّحد في كتاب محفوظ.

<.>

الرملة. خريف 2001

- **_____ الذئب**

إلى نساجة الحكاية الأولى

جدتي: سليمة بوخريص

حســـب وقائع الغابة البعيدة رُبّما يتعذر الحدس فيما يمكن أن يفعله ذئب جائع في ليل وحيد. بينما كان القمر بدراً ينثر فضته النظيفة فوق العالم ذاك. حيث يحكى بأنه: كان ثمة ذئب سيئ الطالع، يبحث دونما جدوى عن فريسة تائهة، أو أي شيء يسـدُّ الرمق، حتى ولو كان بحجم فأر صـغير. كان خائباً وحزينا يجلس بعد لأي مهدوداً من تعب الطواف، يفكر فقط في وجع أمعائه الخاوية الذي حرمه من متعة النوم. وعلى الرغم من عوائه البارق إلا أن أحدا من أبناء جلدته لم يأت إلى نجدته. ليلتها لعن الذئب حظه العاثر وتذكر بألم كم هو شـــقي وبائس ووحيد. وأنه منذ أن عرف الغابة كان بلا أهل أو رهط أو حبيبة. وفجأة طرأت عليه حيلة غريبة فقد اقترح على نفســـه فعل أي شـيء يخفف من قسـاوة الجوع. وقرر أن يرسـم وجبة شـهية، تليق بذئب نبيل. فأفرد ورقة كبيرة تحت ضـــوء القمر ثم اقترح الألوان الملائمة لهيئة حمل وديع وسمين. وشكل في أول الأمر دائرة بيضـــاوية يدثرها صـــوف ناعم ترتكز على أربعة أطراف تغوص أظلافها في عشـــب طريَ. لكن ما أن هم بمعالجة خطوط الرأس حتى غمرته نشـــوة عامرة، وبدأ شـــيئا فشـــيئا ينسى براثن معدته. بعد أن استسلم لفتنة التلوين بجموح غريب

هيّج خياله فتداعى بمرح لابتكار ما يشبه الرأس. غير أن نشوته أضحت تتلاشى حين وجد نفسه تخضع لمشيئة وسواس مخيف. لأنه من حيث لا يدري اختلطت عليه نسب الألوان والظلال والخطوط. وقاده السهو إلى ارتكاب حماقة لا تغتفر فقد انتبه إلى انه رسم رأسا لا يمت للحمل بأدنى صلة تذكر. بل هو في حقيقة الأمر رأس كلب غاضب. عندها تضايق الذئب. وشعر بالارتياب إزاء جسامة خطأه الفادح. فكيف يمكن الجمع بين شيئين متنافرين في جسم واحد. ولا سيما أن قامة الحمل الوديع لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تتجانس مع رأس كلبي.

لذا عزم الذئب على قطع الرأس الغريب. ليرسم عوضاً عنه الرأس الذي يمكنه أن يشي بوجود حمل لا غبار عليه. لكنه ما لبث أن شعر بالخيبة، لأن ما تبقى من ألوان لا يفي بتشكيل رأس بديل. ثم تحوّلت خيبته إلى فزع مريع لحظة أن تبدّى له الرأس الماكر وقد انبرى فجأة يرمقه بعينين حاقدتين.

تقهقر الذئب. وراوده إحساس ثقيل وغامض بخطر وشيك وماحق يتربّص به. وظل لهنيهة يفكر في حيلة ما للتخلص من المصيبة التي خلقها لنفسه. غير أنه ليس من الحكمة في شيء مواجهة كلب غاضب. هكذا خمّن الذئب ثم فرّ هارباً بجسده

قبل أن ينقض عليه ذلك الكائن النكرة. لكنه ما كاد أن يضـــرب بضــع خطوات حتى تعثر من شــدة الهلع وســقط أرضــا. ولم يصدق لحظتها أن عدوّه لم يلحق به. حينها ضحك الذئب ساخراً من نفســه. فكيف له وهو الذئب ابن الذئب، أن يخشــى مخلوقًا ورقيًا، ابتكرته مخيلته الجائعة من بضــعة ألوان بليدة، وخطوط بلهاء. قفل الذئب بثبات وهو يتقدّم دونما احتراز أو حذر من ورقة الرســم غير عابئ بنظرات الكائن الذي هو محض هراء. عازمًا دون هوادة على قطع الرأس. فما حاجة حمل ســيؤكل بعد حين إلى رأس خطّته الصــدفة وحدها. فليكن الحمل بلا رأس. إنه مجرد مخلوق غبيّ كُرّس لأن يكون غذاءً شـهيًا لذئب نبيل.

***

عند هذا الحدّ توقّف الذئب الذي لم يكد لســانه يســتعير وظيفة ممحاة لزجة حتى تســمّر فزعًا لحظة أن هبّت ريح عاصفة وانتفضت الورقة بقوة وعنف. ووجد نفسه عاجزاً عن إطلاق عُوائه الأخير. فثمة ألم حاد وعنيف يمزق عنقه، ويشــل حواســه، ولم يكن في وســعه رؤية ذلك الشــيء الذي ينهشــه

بقوة، ويذبحه من الوريد إلى الوريد. لأن الوجع الذي لا يطاق قد تحوّل إلى خدر بارد ومقيت يسرى في جسده المتهالك.

حيث الحياة تخضـع بهدوء لمشـيئة خيال نزق لم يكن منذ قليل سوى ذئب جائع قرّر أن يرسم العالم بمخيلة مريضة.

كانت تلك لحظة متعذرة في سيرة الذئب.

لأنه عندما اســتيقظ العالم في الصــباح التالي فوجئت كائناته بذلك المشــهد المروّع، لذئب وحيد نُكِّل به. فتمزّقتْ أحلامه بضــراوة وحش غريب. وما من أحد اســتطاع أن يجد تفســيرا لورقة الرســم بفراغها الهارب الذي يشــبه هيئة مخلوق غريب يتعذّر وصفه. كما يشي بفداحة خطأ ما.

خطأ لجوع ينمو. كما تشير هذه الحكاية التي هي محض خيال لن يصــدقه أحد؛ حكاية عجيبة تبدأ بذئب جائع، قرّر أن يرســم حملاً له رأس كلب. هذا كل شيء.

<.>

باب بن غشير

12 ابريل 2003

- _____ بيتُ الشمس

تقتضي هذه الحكاية التي من سلالة الغابة، سبر كل ما هو متعذر في اللحظة تلك، عندما ارتبكت كائنات البر إزاء ضـــراوة الظلمة المفاجأة. لأنه يســـتحيل على براءة الحيوانات الغافلة استيعاب صرامة العلم فيما يعرف بظاهرة الكسوف.

ولان الشمس احتجبت على نحو مباغت في ذلك الصباح البعيد، خضع الخيال رغما عنه لمشيئة الفوضى، وأصوات العتمة. بعد أن تحول النهار إلى كتلة قاتمة من ليل إضــافي حالك الســواد، ممـا حير جميع الكـائنـات يوم ذاك؛ وجعلهـا قلقـة وخـائفـة. ولا ســـيما الطيور التي خمدت واجفة في أعشـــاشـــها. غير أن الســلحفاة وحدها بدت أكثر حكمة، وهي تفكر في نســج حيلة ما، تستدرج الشمس إلى عاداتها اليومية. ولعلها (أي السلحفاة) وهي تحمل أينما ذهبت منزلها الصـغير فوق ظهرها، قد أدركت بالفطرة بان الشمس هي الأخرى: مهما عظم شانها تحتاج إلى بيـت آمن يؤويهـا، وقـالـت في نفســـهـا: "لابـد أن يكون منزل الشـــمس ذا مزاج خاص من حجارة لا تحترق، وزجاج شـــفيف يليق بجمالها اللاهب". لذا قررت الســلحفاة الذهاب إلى البنّاء.. وهو رجل بهيئة عنكبوت كبير أفنى عمره بين الكتب ودراسة فن العمارة، ولا يضـاهيه أحد في تشـييد قصـور معلقة على أعمدة

لا ترى. وقد كان البناء يومها حزينا لأن الشمس لم تشرق، فلم يغادر عتبة بيته. وبعد لأي التقت السلحفاة بالبناء وقالت له " أنت تعلم أن الشمس لا تختفي هكذا دونما سبب... وأنها لابد مستاءة منك لأنك لم تفكر بعد في بناء منزل جدير بسموها؟ فهيّا أيها البناء. فأنت الأجدر بين جميع المهندسين، بان يوهب هذا الشرف النادر، لأنك عارف بنسب القوانين التي تنطوي عليها أسرار العمارة، فاصنع منزلا للشمس تجتمع في ردهاته الألوان السبع وتنصهر داخل تجاويفه الظلال كأنها عطر الضوء. وتذوب المسافة بين الخامات التي من حجر قدّ من ذهب وفضة...لتغدو حفية بأسرار لمعانها، لا تدركها بلاغة النظر. واجعل أروقته فسيحة وثرية بدلالات النجوم ورحلة الكواكب، ولتكن أسواره من كريستال مفضض تحفها ازاهير عباد الشمس، وممراته نغم يهيج من سلالة الروح..... ".

قال البنّاء: "على رسلك أيتها السلحفاة. فانا جائع وصغاري أيضا، ولن يكون في وسعي أعمال نحيلتي بمعدة خاوية.فاحضري لي خبزا من عند الفران لكي اعرف كيف يمكنني بناء منزل للشمس"

أسرعت السلحفاة وهي تدبّ من درب إلى آخر، ومن ظلام إلى ظلام حتى اهتدت إلى موقع الفرن. فوقفت لهنيهة تلقط

أنفاسـها ثم صـاحت بصـوت عال: "يا عمي الفران. أريد خبزًا للبناء حتى يمكنه أن يشيد منزلا للشمس"

قال الفران: " لن أعطيك خبزا حتى تجلبي لي حطبا من عند الحطاب ".

فأسرعت السلحفاة صوب الغابة البعيدة ونادت بصوت عال: " أيها الحطاب أريد حطبا للفران، لكي يعطيني خبزا للبناء، والبناء يبني منزلا للشـمس حتى تشـرق ". ضـحك الحطاب بمرارة ثم صـاح في وجه السـلحفاة: "أنا ضـمان ولن أعطيك عرفًا واحدًا من الحطب حتى تحضري لي ماء من البئر ".

اسـتدارت السـلحفاة، وانطلقت بخفة إلى أطراف الوادي، حيث البئر الوحيدة تنزوي على نفسـها محاطة بالظلمة الموحشـة.

وقفت السلحفاة عند حافة البئر ونادت في أسى:

"أيتها البئر فمك مقفل وغطاؤك محكم ثقيل كالموت، وأنا أريد قليلا من مـائـك العـذب للحطـاب، لكي يعطيني حطبـا للفران، والفران يهبني خبزا احملـه للبنّـاء الـذي سـيبني منزلا عظيمـا للشمس لكي تطلع".

ردّت البئر في أسـى: "كيف يكون ذلـك وانـأ مجرد بئر مهملـة بعلانية. محكومة بالعزلة والنسـيان لا خبر لي يمجّد مائي. فلن تنالي شيئا من عندي حتى ينسج الشاعر السامق القصيدة التي

تمجد صـــفاتي وتخلد ذكري". ذهبت الســـلحفاة إلى الشـــاعر السامق في خلوته النائية، فوجدته تائها بين الكلمات، يقتفي أثر القوافي من دون أن ينتبه في أول الأمر لدخول السلحفاة التي بدت تتكلم بخشوع كأنها تقيم صلاة أخيرة.

وهي تهمس بتوسل يخالجه الحزن:

"أيها الشـــاعر الســـامق الذي يختزل العالم بأســـره في بضـــع كلمات نشيطة. أريد قصيدة في مديح البئر. لان الحطاب ظمآن، والفران بلا حطب، والبناء يحتاج للخبز من اجل أن يشـــرع في بناء بيت للشمس لكي تشرق.

هيا أيها الشاعر قل قصيدة في مديح البئر. فأنا أعرف أنكَ قلق وحزين من اجل أمك العليلة، وان أطفالك يحتاجون أحذية وثيابا للعيد وزوجتك الغيور تخشى دائما من مغبة امرأة أخرى. ولكن لا باس أيها الســـامق، فكل شـــيء ســـيغدو بعد حين مضـــيئا ومرحا؛ لان الشمس رهن قصيدة من بضع كلمات تدور.

<.>

طرابلس

7 أكتوبر 1992

▪ _____ شمس صغيرة

"نوره أسطع من نور الشمس/

التكليف تابعه/ الذم والحمد قريناه،

والثواب والعقاب ميراثه"

- أبو حيان التوحيدي-

تقول الحكاية:

عندما كانت قراءة الكتب في مكان ما تعدّ ضربا من الضلالة والتطرف، لم يكن في وســع ذلك الجندي الصــغير مقاومة هوس الإطلاع والمعرفة. ربما لأنه كائن لا محالة قد جبل على القســاوة وحدها، حيث الحياة حجر أعمى قذف بصـلابة عمياء في مفازة شحيحة. وهي الصلابة ذاتها التي رغم انتسابها نحويا إلى قاعدة التأنيث تظلّ في معجم الغابة رهنا **"بالمكان الذي لا يعوّل عليه"** إلاّ إذا افترضنا مجازًا، بأن صنعة النحاتين قد تضخ في شــراينه نســغ الأنوثة. وهي معجزة تحكمها نزوة متخيلة، لن يكتب لها أن تضاف إلى شـقيقاتها السبع، في بيئة تنظر إلى النحت كتركة وثنية مقيتة. لذا وبغض النظر عمّا يكوره النحاتون من مفاتن في تضــاريس الحجر الغشــيم، لن تعدو بالنســبة لجندي مهدّم سوى شطحة نافلة لاجدوى من ورائها غير مراكمة المزيد من الغبن والوحشة، لأن مجاز النحات - حتما - لن يصل إلى بث روح النعومة التي عليها أن تكون بمثابة أنثى تشــي كذبتها بحقيقة صـادمة .. حتى يمكنها على نحو ما أن تقفز أبعد من دهشــتنا الغبية وفطنتنا الســاذجة، لاســيما بالنســبة لكائن

معزول في ثكنة عسكرية تسيجّها القوانين الأشدّ جلافة وعنفا، حيث لن يكون في مكنة الخيال البائس العثور على كنز بهيئة امرأة جميلة في سرير. وهي لا شك معضلة قد ألقتها الصدفة. فثمة هنا وهناك وجاهة تتخلّق بمشـــيئات الصـــدف وبداهتها المتعالية، حين يولد الملوك ملوكا في أرحام أمهاتهم. ويولد الأثرياء كما يقال: وفي أفواههم ملاعق من ذهب. بينما يولد الفقراء موســـومين بأقدار فقرهم: نفاية مدن / روث جهل / وقود حرب / طلاّب غيب يسعون إلى الجنة بمؤخرات عارية.

بيد أن صـــاحبنا الذي بات يدرك جيدا ســـوء طالعه قد اســـتعاض عن خشـــونة الفقد بتلك الأنوثة التي تلقيها الصـــدفة سهوًا في طريق التائه، لحظة أن عثر على ذلك الكتاب المجهول الذي لا اســـم له. مجرد مزق من ورق مهمل لم تســـلم حوافه من جريرة العثّ، فاســـتســـلم لهنيهة متواطئا مع فضـــول مريب يفكّك الكلمات ويخمش المضـــان المطمورة خلف الســـطور. مقتفيا سـيرة العطب تلك. التي ظلّت بلا خواتم. لأن الصـفحات الأخيرة للكتاب، قد تمزقت منذ زمن بعيد. لحظتها فقط شـــعر الجندي بتلك الضـــراوة الغريبة للألم الذي تقاســـيه الكلمات المعـذّبـة. وقرر أن يبحـث بين معـاقـل الورق عن تتمـة كتـابـه المجهول.

***

تضيف الحكاية:

منذ اللحظة تلك، اســتمرأ الجندي الصــغير لعبة اســتدراج الكتب إلى سريره، وهي مسألة يمكن حدسها، وتصديقها أيضا كواقعة لا تحتمل الشــك في ضــرورة مقصــدها ونزاهة ألوانها التي بدأت فيما بعد تتشــــكّل كإشــــارات لمّاحة جعلت من ذلك الكائن الوضــــيع يدرك دون عناء: أن الحياة الحقّة أكبر من أن تخضع لأحزمة معدنية من أسلاك شائكة يتربّصها الصدأ. فانحاز بكل جوارحه لســلالة الورق. حتى أضــحى يعتقد دون ريب: أن القراءة صــنو الرئة، فظلّ يلتهم في شــهية جامحة كلّ ما تقع عليه عيناه من عناوين في الشــعر و التاريخ والحكمة وفقه اللغة، وأصــبح يتصــفّح متون أبي حيّان التوحيدي ومآثر إخوان الصــفا، وفتوحات الشــيخ محي الدين بن عربي، ويتلو طواســين الحلاج مثلما يتلو العاشــــق رســــائل حبيبته. ولم تعزه الحيلة لاكتشــــاف الخلوات الآمنة التي تجعله مطمئنا وقانعا بلذاذة صــيده، بعيدا عن أعين الرقباء والبصّــاصــين. ولأن أنوار عنابر النوم عادة ما كانت تطفأ في تمام الســاعة العاشــرة ليلا. كان لا بد له من التحايل على سلطان الظلمة وتمزيق سواد قماشتها

القاتمة، متيحا لتلك الحياة المخبوءة ما تيســـر من الســـوانح المجيدة. لكي تتخلق يســـمو خفي يتعذر لجمه. وهي مســـألة محيّرة أرّقته ليال طوال قبل أن تنجده قريحته باختراع ذلك الكوكب الذي افترض له مدارا ســـريا حول الكلمات. ضـــاربا عرض الظلمة ببؤرة متكتمة من نهار اســـتثنائي يخصـــه وحده، بواســـطة مصـــباح يدوي. قدّر له أن ينبعث بمرح تحت الغطاء الخشـــن ليوقظ الكلمات النائمة ويهيّج بصـــمت واجف كوامن الخيال الكسول.

غير أن بقعة شـمسـه الصـغيرة، المتفردة بحذر شـديد لم تكن في تلك الليلة الشـتوية المشـئومة سـوى أداة اتّهام بالغة الطرافة، حين تسـرّب شـعاعها النشـيط من بين طيّات البطّانية العســـكرية. حيث فوجئ الجندي بغطائه وهو يســـحب بقوة. وبعريف الخفر واقفا حدّ رأسه، ينتشله عنوة من صحبة الدكتور زيفاكو.

***

تقول الحكاية:

في تلك صـودر الدكتور زيفاكو الذي لم يفهمه عريف الخفر، وقضـــى الجندي الصـــغير ما تبقى من ميراث الظلام البغيض خاضعا بقوة للعقاب الميدانيّ. مهرولا وزاحفا عبر ساحة الثكنة حتى انســـلخ جلد ركبتيه وكوعيه. تاركا مســـارب من الدم فوق أرضـية الأســمنت الباردة. وبالكاد اســتطاع في صـبيحة اليوم التالي الوقوف إزاء آمر الكتيبة الموســـوس، ليواجه رغما عنه تهمة اختراق الضبط والربط، بعد أن صودرت شمسه الصغيرة، واعتقلـت عـائلتـه الأثيرة التي تتـألف من: شـــهر زاد، والأخوة كرامازوف، والصـــخب والعنف، والكلمات التي تقاتل. واعتبرت بمثابة دليل قاطع على انحراف صـــاحبنا - الجندي الصـــغير - الذي امتثل دونما رأفة لتقبّل العقاب الرادع وقد آثر بطواعية أملتهـا اللحظـة أن يلتزم الصـــمـت الســـاذج ، وانبرى يتظـاهر بالإصـــغاء إلى كلمات الآمر المتصـــالبة والتي تتقاذف صـــارمة كأنها قدّت بعناية بليدة على هيئة توبيخات عنيفة الوقع.. مؤكدة أن قراءة الكتب بالنسـبة لجندي صـغير تعدّ ضـربا من الضـلالة، والعبث الذي لا ينسجم مع صلابة وانضباط آلة الحياة العسكرية. لكن الجندي الذي تعهد للآمر شـــفاهة بعدم تكرار هذه المثلبة، قد أضمر في نفسه ارتكاب معصيته الجميلة.

***

تضمر الحكاية أيضا:

أن الجندي الصغير قد اهتدى فيما بعد إلى إشارة المعصية التي بدورها قادته إلى صناعة شمس أخرى لا تقال. لأنها رغم صغرها كانت أشد بلاغة من أن ترضخ لمجاز الكلمات أو تتصاع لحواس البشـــر. شـــمس عظيمة لا تمس، ولا تعترف بنواميس الوقت أو تخشـــى ما تخبئه الظلمة البغيضـــة بين أعطافها من دســـائس للإطاحة بوريث عرش المعرفة الذي ما فتئ يتقدم بجســـارة لا عهد له بها. وحيدا بأســـره يقرأ في الظلام بلاغة الضـوء، وما خطته يد السـدنة الأوفياء. عشـاق الحكمة ورسـل الروح وأربـاب الخيـال المقـدس. فقرأ، وقرأ، وقرأ، مـدفوعـا بشهوة لا تضاهى عديد المدوّنات والمصنّفات النادرة، من دون حاجة لاستخدام الشموع والمصابيح اليدوية. إلى أن أصبح في مكنته بعد حين من الدهر أن ينسج الحكايات العجيبة والأشعار المتوحدة، لأنه كلّما تقّدم. فتح بلادا جديدة وصـــار أكثر ألفة وقرابة من شموس الحكمة التي لن يراها أحد إلا هو.

<.>

الأبيار 1983/12/12

ابنة الرمان

يحكى أن رجلا عاقرا جلس ذات صباح تحت شجرة توت، يفك مهموما. فقد آلمه أن يرى الأيام وهي تضيق به بعد سبع سنوات من زواج عقيم لا ظلّ له سوى الخيبة. وفيما هو ينكش التراب بغصن مكسور مقلّبا بواطن سيرنه المحزنة وإذ بغول تنكّر بهيئة شيخ مسنّ يقف إزاءه ويناوله رمّانة ناضجة في غير موسمها. مؤكّدا له بأن زوجه ستحبل وتنجب له ذرية إذا أكلت رمّانة السحر هذه. وقد اشترط عليه أن يكون المولود الأول هبة تخصّه وحده. وفي غمرة دهشته وافق الرجل العاقر مؤكّدا بأنه سيلبي رغبة الشيخ الذي اختفى فجأة.

***

بعد أن أكلت زوجة الرجل رمّانة السحر تلك حبلت على الفور كما أكّد الغول ولم تمض مدة تسعة أشهر حتى أنجبت بنتا جميلة تشي فتنتها بأنها ما خلقت الاّ لكي تحب. وما كادت الطفلة تكبر حتى استدرجها اللعب. فأخذت تتعرّف على صخب الشارع. ولم تأبه كثيرا بذلك الشيخ الغامض الذي ما فتئ يستوقفها بين يوم وآخر وينحني عليها هامسا في أذنه مكررا

الجملة ذاتها: "قولي لأمّك أين ضـــاعت الكلمة " ثم يقرص شـحمة أذنه ويختفي. لكن الطفلة وهي في غمرة اللعب كانت تخضـع لنسـيانات بريئة فغفلت عن إبلاغ أمها بأمر ذلك الشـيخ الغامض. حتى صـبيحة ذلك اليوم الذي همّت فيه الأم بغسـل رأس أبنتها حيث هالها أن ترى بقعة صـغيرة من الدم تصـبغ حمرتها شحمة الأذن.

حينها فقط استدركت الصغيرة حكايتها المهملة وألقتها ببراءة من دون أن تفهم لحظتها مصدر ذلك الأسـى الذي غمرت كآبته وجه الأم الباكية.

***

يومذاك طبعت الأم على خد طفلتها القبلة الأخيرة بعد أن ألبستها أجمل فساتينها ثم ودعتها بحرارة وهي تحمّلها الرسالة التي ينبغي أن تلقى على مسامع الغول.

وهكذا ما أن خرجت الطفلة إلى الشـارع حتى التقت بذلك الشيخ فألقت على مسامعه دونما تردد الجملة التي كانت ترزح تحت ثقلها، قائلة له " من هنا الى هناك يمكنك أن تأخذ الكلمة إذا شـئت ". ما أن فهم الغول مغزى الكلمات حتى بادر بجمل الطفلة على كتفيه وطار بعيدا ليسجنها داخل قصره النائي في

الغابة الموحشة. حيث ظلّ كل مساء يطعمها من غنائم صيده لحما شهيّا من الأرانب وصغار الغزلان ويجلب لها فاكهة طازجة لم تمسّ.

***

وهكذا كبرت الطفلة في كنف الغول وغدت صـــبية مليحة يغار من حســـنها القمر. لكن وفي يوم من الأيام خطر لها أن تتحايل على الســـأم بالتجوال حول أطراف القصـــر. فرأت في الإصطبل فرسا غريبة، نصفها حيوان، ونصفها الآخر امرأة. كانت تتغذّى على فضـــلات من لحوم البشـــر وعظامهم. فتقزّزت من بشاعة المشهد، ثم استبدلت اللحم شعيرا والعظام قشا، وظلّت تلاطف الفرس حتى رامت طعامها الجديد. وخلف القصـــر اكتشفت ابنة الرمان غرفة معزولة ينبعث من وراء بابها الموصد أنين موجع، فهالها الأمر وشـــعرت الخوف والارتياب ثم تقدّمت من الباب وعالجن فتح قفله. وما كادت تدخل الغرفة حتى فوجئت بفتى ســـجين يتوجّع وحيدا من شـــدّة المرض والجوع. فدأبت على إطعامه وتطبيبه حتى تماثل للشـــفاء. لكنه ترك في قلبها شـــغفا وهياما لا فكاك لها منه. فقررت الفرار هي وفتاها بعيدا عن مملكة الغول.

وفي يوم ما حدسـت ابنة الرمان أن سـر قوة الغول يكمن بين طيات شـعر رأسـه. لذا اسـتدرجت الغول بكلمات تقطر ودّا وأخذت تفلي له شــعر رأســه، فاســتكان الغول منتشــيا برحلة الأصابع الرقيقة الناعمة وهي تطارد القمل عبر مسارب فروته. لكن الأصابع قد اصطدمت أثناء مشيتها بين طيات الشعر الكثيف بعود صـلب من قصـب الواحات البعيدة، وصـرة صـغيرة بحجم ثمرة التين، وإبريق صغير من نحاس مصقول. وحين استفهمت منه ســـرّ هذه التعاويذ العجيبة انتفض الغول غاضـــبا ونهرها بعنف لا عهد لها به. فضــرعت ابنة الرمان تبكي بكاء حارا مسّ شـغاف الغول وحرّك مشـاعره الراكدة. فاضـطر أن يكشـف لها في لحظة واحدة مفاتيح السر الدفين، وقال:

"يكفي عند الضـــرورة أن يرمى عود القصـــب ليكون غابة شـائكة يصـعب خرقها / وتكون صـرّة الرماد إذا ما بعثرت فوق الأرض حريقا عظيما يأكل الأخضر واليابس / أمّا إبريق النحاس فأنه يصير مهرا هادرا يكتسح السهول ويغطي الجبال العالية.

***

في تلك الليلة ما كاد الغول أن يغطّ في نومه، حتى تدبّرت ابنة الرمّان عودا شبيها، وصرة من رماد لا يدخلها الشكّ، ومن نحاس شقيق أحضرت إبريقا آخر. وبعد أن فكّت عقدة التعاويذ الثلاث من بين خصلات الشعر الكثيفة. ربطت الوهم عوضا عنها. وبينما القمر ما يزال طفلا استيقظ الغول فزعا اثر كابوس جثم على صدره وكاد أن يكتم أنفاسه فهاله نباح الكلب الذي انبرى ينبح على نحو موصول. في أول الأمر تحسس الغول فروة رأسه فاطمأن لوجود التعاويذ الثلاث كما هي .. ثم طفق يبحث عن ابنة الرمّان، فلم يجد سوى الفراغ وحده يجثم موحشا في المكان. ولمّا تناهى إليه وقع حوافر الفرس وهي تخبّ مبتعدة، اكتنفه التوجس وخامره الريب فركض خارجا يقتفي أثر الفرس التي تهرب يتبعه كلبه الوفيّ، وقد كان عليه وهو يركض سريعا أن يفقد نصف قوته لكي يشقّ مسربا وسط غابة السحر الشائكة التي أحدثها عود القصب. وأن يهدر النصف الثاني من أجل إطفاء الحريق الهائل. مستنفذا آخر بلل من لعابه ولعاب كلبه الذي التهمته النيران فسقط محترقا يلفظ عواءه الأخير.

***

وعندما ألقت ابنة الرمان إبريق النحاس، تسـمّر الغول مستسلما في عجز ومهانة

وخيبة فادحة إزاء النهر الهادر. وظل واقفا يرتو بحسرة ومرارة إلى الأفق البعيد، حيث الفرس المحمومة ركضًا تحملُ فوق ظهرها العاشقين صوب الضفاف الآمنة.

<.>

باب بن غشير

24 يناير 2003

عُواء الفصول

على الرغم من وثوق ذلك الرجل الكهل بأنه لا وجود في هذا الجزء الخامل من العالم لسـيدة حقيقية تشـبه المرأة التي أيقظته من نومه في هذا الصـــباح البارد .. الاّ أنّه وتحت غمرة إحســاس غامض بغبطة خفية لا يدرك مصــدرها لم ينتظر في سريره ريثما يتكاثف الضوء في الخارج قليلا بالقدر الذي يتيح له رؤية الطريق. هبّت ريح ناعمة غمرته بقشـــعريرة مبهجة وهو ينحدر عبر الهضـــبة، حيث لا أحد ســـواه يتأمل تخوم "الرملة " وظلال منـازلها وأشـــجـارهـا المتوحـدة في هيئـة ظلام يتبـدد بمشـــيئة شـــمس فتية تمزّق قماشـــة الظلمة بألوان قرمزية مخلوطة بفضــة لامعة. تهب أفق الشــرق شــعاعا مرحا. وفيما هو يضـرب الدرب الترابي متجاوزا شـجرة سـرو هرمة بمحاذاة سـور قديم تهدّمت بعض أطرافه يحيط جبّانة (سـيدي بوراوي)، غافلته كآبة مهيبة تسللت بخفاء إلى شغاف روحه التائهة .. حين بانت له شـواهد القبورِ بين فروع شـجر الخروب .. عندها تذكّر أباه الميت، وحبيبته الغـائبـة، فـاحتـال على خوفه مترنّما بمقطع يتيم لأغنية شـعبية تحكي عن الحمام الذي يطوي البلدان النائية تحت جناحيه ويحمل الرسائل والوعود والقبلات الحارة.

***

عند المنعطف المفضي لطريق الإسفلت توقف مستأنسا بشجرة زيتون. كانت الساعة تناوش السابعة، بينما الحافلة لم تأت .. ومن دون جدوى انبرى يلوح للسيارات المارة .. لكنه وتحت وطأة إحساسه بالخيبة طفق يطلق العنان لخياله الجامح مستدرجا المرأة التي رآها في حلمه. وسرح بعيدا دونما إحساس بالوقت الذي يمرّ سريعا. كذلك لم يشعر بقامته التي تقمّصت هيئة كهل وحيد في عزلته الغامضة من دون أن يشعر بعواء الفصول وهي تمضي، وتبدّل الجهات. حيث لم تعد الأشياء كما هي. وأنه من حيث لا يدري قد استحال إلى حطام شبح يابس تغلغلت أقدامه في عميقا في جوف الأرض، وتشابكت بعروق شجرة الزيتون. هناك على قارعة الطريق الريفية لم يكن في وسع المارة الذين كبروا فيما بعد أن يخمنوا بأن كتلة التراب تلك. والتي تحجّرت بفعل قساوة الزمن والترقّب هي مجرد أطلال مهدّمة لرجل خائب، كان في يوم ما ينتظر الحافلة ويحلم بامرأة مستحيلة وغيوم سخية.

<.>

الرملة. 1يونيو 1997

الغراب

حين بدأنا نضرب المفازات القاحلة بين نهازات خائنة، وليال من زمهرير كان قد نفد ماؤنا وزادنا، وعجزت كواهلناعن حملنا حتى ثقلت علينا التدابير، وتلاشت الجهات، فانصرم رهطنا، وبدا كل جندي يتخلص من أعبائه، فتركنا خلفنا الخوذ، والبنادق،

والكتب، والنياشـين، والأعلام، والأناشـيد، ونحن نمشـي بلا ظل أو صـوت؛ سـوى فحيح وحش الهلاك، الذي ما انفكّ يتربص بنا كلما أمعنا النظر في الأفق وهو ينأى.

***

كنتا نمشي بلا وزر غير ما تبقى من توق واهن بدا يخفت كلما انفرط شملنا بعد أن ظل بعضنا، أو كلّ عزمه، وقنط من ضرب فراغ ثقيل ودامس لنكتشف بعد لأي بأننا أمسينا بضعة أشباح هزيلة يدحرجها وهم سادر لا أين له، عشرة أيام مرت ونحن نمشي لنقف أخيرا على يقين خرابنا اللامع. فكانت تلك إشارة أخرى لمفردة متلكأة، تعذر علينا لحظتها - نحن الجنود البؤساء- ترتيب حروف وعاء الاسم؛ لان غثيان العطش، وغشاوة التعب، وضراوة الجوع، بالكاد جعلتنا نتبين السماء التي أضحت بهيئة أجنحة من نار ومعدن. وكأننا صرنا نهذي عندما رأينا الكائن الذي تبدى غرابا مرحا وهو يحلق فوقنا، لحظة أن تكومنا عند حافة جرف مستسلمين لمشيئة الخراب وسلطة العطش.

***

ظلّ الألم يمزق أصـواتنا، ونحن نطلق صـراخنا في وحشـة العالم، ونتقيأ مرارة فجائعنا.

***

في الصباح القاتم أدركنا جيدا فداحة ما نرى.
كانت جثثنا تملأ المكان، وكانت أجنحة ســـوداء تحجب منازل الشـمس، وعوالق لزجة تنخر ذاكرتنا، وحشـرات نارية تمتص ما تبقى من دمنا وتأكل لحمنا .....
كان غراب أكيد يحشد أتباعه للوليمة. وهو آخر ما رأيت.

<.>

طرابلس 15 فبراير 1990

عن القمر والسيف

في اللحظة تلك التي مثلت فيها شهرزاد إزاء الملك الطاغية الذي تلوثت يداه بدماء نســـاء مملكته. بعد أن قرر قتل جميع النســـاء بجريرة امرأة واحدة هي زوجه الخائنة، التي قيل بأنها

مارســت الحب مع زنجيّ من عبيد قصــره في الســوانح التي يتيحها انشــغال الملك المخدوع برحلات الصــيد. لحظتها أدركت شهرزاد بحدس الأنثى أن الفرصة النادرة لتأجيل موتها تقتضي احاطة الملك السفاح بالحكاية المستحيلة التي يصعب سردها في ليلة واحدة. فاستعطفت الملك متوسلة بأن يستجيب لتلبية أمنيتها الأخيرة قبل أن يأمر ســيافه بقطع رأســها، طالبة منه الســماح لها بأن تروي لأختها الصــغيرة دنيا زاد الحكاية التي تعودتها قبل النوم. وإزاء هذه الأمنية الســاذجة لامرأة ســتقتل بعد قليل لم يجد الملك غضــاضــة في إبداء موافقته، فتحينتها شهرزاد على الفور وافتتحت حكايتها بحشد من المردة والجن والشــياطين والأنهار الغامضــة والطيور المنقرضــة وحيوانات الغابات القصية وذئاب الصحراء وسباع الجبل والمدن العجيبة التي لم يطأها الخيال بعد، كما اســتدعت الشــعراء الصــعاليك والشطار والعيارين والعشاق المجانين الذين استوطنوا مرابط التيه الغامضة، والفرسان الأشاوس بغبار لا يشق. وروّضت الخيول الوحشــية والعواصــف والأحلام المعتوهة. ثم شــدّت الرحال إلى بلاد العجائب والأســاطير. وروت في الليلة الأولى الحكاية المستعصية التي لن تنتهي إلى أبد الآبدين ....

***

في أول الأمر لم يحفل الملك بقرقعة حروف الحكاية ولا بالمرأة الجميلة في أســـى والتي بدت كأنها تصـــلّي لا تســـرد قصـــصـــا. لكنه ما لبث بعد هنيهة أن اســتســـلم طواعية لمهابة الإصـغاء بطواعية عمياء، مأخوذا بضـراوة السـرد ليلفي نفسـه رغما عنه فريســـة حـائرة تتخبّط بين أســـنان فخـاخ الفولاذ والشـغف والترقّب، منتظرا في لهفة فادحة تتابع الوقائع الغريبة التي لا خواتم لها. وكأنها ســـتمعن دونما هوادة، ســـادرة في إثـارة الغوايـات بلا توقّف عن التوق والترحـال، أو كـأن آفـاقهـا ســتظلّ مشــرعة على الجهات الأربع. وأن الليل على غير عادته منهوب دونما رأفة بمصـــائد لغة حارة تقترف الصـــور الدامية ببراثن البلاغة التي تصـنع معجزة السـند باد والعنقاء ومصـباح علاء الـدين، وهي تحكي بمفردات نـادرة قـدّت من حجـارة الأسـاطير ونسـجت من نيران السـحرة وأبخرتهم الدائخة لتطلق في ســـماء الخيال: بســـاط الريح والقصـــور الطائرة والخيول المجنّحة بعلو فصـــيح، وتفتح مغاليق الغرف الســـبع المحكمة بإقفال الحكمة وطلاسم السحر الأسود.

***

كان شهريار دون ريب قد فتن بجمال السرد، فلم يعد يعبأ بآلة الزمن وهي تنظم في عقد لياليها، الليلة الأولى بعد الألف وكأن الزمان خطفة برق ولمحة نظر، لأن الحكاية وهي تمخر عباب مناطق مجهولة وتنسج كائناتها المعذّبة وتحفر عميقا في تربة المخيلة، لم تترك مجال لشيء سوى نشوة السكر التي غمرت شهرزاد بلذتها الكاسرة وجعلتها مخطوفة بمباهج حياة جديدة تتخلّق من روح الكلمات تحت صفحة قمر ضال يكاد من شدّة الوله أن ينسى دورته ويخطئ في حساب المواقيت. هكذا استطاعت شهرزاد أن تحتمي بدرع الحكاية وتتحصن خلف قلاعها المنيعة، لتنقذ أعناق بنات حواء من سطوة السياف، وأن تهزك بمفردها مشيئة القتل، ليظلّ السياف - ولا سيما بعد صعود الحكاية كرسي العرش- زمنا طويلا عاطلا عن سفك الدماء .. وحيدا يهشّ الذباب عن رغباته الفاسدة، لا عمل له سوى كنس الأروقة وتنظيف المراحيض والإشراف على اصطبلات الخيل وزرائب الماشية.

***

وبصدد ما حدث بعد ذلك، أكّدت الحفريات المورفولوجية أن الليلة الثانية بعد الألف شهدت نهاية غريبة ختمت سيرة الملك

السامق الذي أذهلته الحكاية فأصابته بالعيّ إلى الحّد الذي لم يجد معه بدّا من اللجوء إلى مجاز الصـــمت بعد أن عجز عن إيجاد الكلمات المناسبة لتوديع سكّان القصر، فاكتفى بلحظات صـــامتة، مثقلة بالرهبة والبهاء. وهو يرنو بهدوء إلى شـــهرزاد: المرأة الوحيدة التي سـمّت له المجاهل المسـتحيلة، ووصـفت هيئة الجمال المقدّس، قبل أن يسلّمها مفاتيح مملكته الواسعة ويغادر وحيدا بلا زاد أو رفيق، تائها عبر جهات قصية، يبحث من دون جدوى عن مسـارب الخيال وأسـماء الخرائط الخفية التي تفضـــي إلى نار المعرفة الأولى، حيث لا أحد يفكّر بعد في ارتكاب الخطيئة الفاحشة وفعل الدنس.

***

قيل والعهدة على الراوي: أن البلاد التي حكمتها الملكة شـــهرزاد قد طلت لزمن تنعم بســـخاء لا نظير له، مأهولة بالشـــعراء والمغنين والحكماء. وأن الأفكار أصـــبحت ترعى بحرية آمنة وســـط بســـاتين مترعة بالدفء والطمأنينة. وظل الرعايا إلى عهد قريب يتمتّعون بألفة صـقلتها قريحة الشـعراء

ومخيلة الرســامين وشــفافية العازفين. حيث يجتمع الشــنفرى النّفري والحلاج والمتنبّي والجاحظ وزرياب وديك الجن وجميل بن معمّر تحت قمر واحد.

<.>

طرابلس

30 أكتوبر 1989

ــــــــــــــــ مِن حالات الجمر

(1)

الحذاءُ الأحدب

ثمة ما جعل الأفق قرمزيا أو لازورديا بلون عصافير مضروبة ببنادق صيد أو بحجارة مقاليع، إنها الشمس تفر عن متناول اليد فيما لاح الدرب الترابي المؤدي إلى المدينة ملتوية كثعبان أصلة خرافيّ، يزحف رويدا رويدا، شاقا سهول قمح صفراء، لاح يعج بارتا ل سمراء تتدحرج صوب بيوت شعر متناثرة. لم تضأ بعد. إنهم الرجال يعودون من السوق، بعضهم راجلا وبعضهم الآخر راكبا الحمير والجياد محملين بالسكر والشاي وعلب السجائر كذلك بأشياء صغيرة للأطفال والنساء.

أمام بيت شعر صغير يشبه جملا باركا على وجه الأرض ثمة امرأة ذات وشم وعينا غابة محترقة وبشرة من حنطة تصارع كتلة عجين، ترفسها بيدين قويتين بمساحة قصعة خشب عتيقة. وبين هنيهة وأخرى كانت المرأة تنظر إلى الدجاجات وهي تنقر التراب أو هي تلتقط ما تناثر من فتات خبز وحبيبات قمح وشعير، كذلك كانت تنظر إلى الغلام الواقف على بعد قامتين أو ثلاث منها فوق كثيب ترابي وهو يطلق عينين قلقتين باتجاه الدرب. كانت المرأة تعلم أن الغلام منذ شهر أو أكثر قد بلي مداسه، وأنه مابرح يرتقه بين الحين والآخر بمسامير صدئة وأسلاك نحاس رفيعة كان يجمعها من هنا وهناك حتى أمسى

غير قابل للعب كذلك غير قابل للركض **"يا للغلام السـيئ الحظ** " وأنه (أي المداس) قد فقد لونه واكتسـب **شـكل عجوز حدباء تهشّ الذباب عن جثة / شــكل صــديق خائن / وخزات رؤوس مســامير صــدئة. رؤوس أســلاك معدم ناتئة / حالة تعب يومي .....**

" يا للغلام السـيئ الحظ ". فكم كانت المرأة تتألم لحظة رؤيتها البثور والجروح تغطي

قدم الغلام وتذّبه كلّما حاول المشــي، مما دفعها في الليلة البارحة أن تعطي خاتمها الفضــي الأثير إلى زوجها كيما يبيعه في سـوق المدينة. وأن يشـتري بثمنه حذاء جديدا للولد. وقالت لزوجها:

" فليكن لونه أسو د

أو أحمر

أو أبيض، أو بنيّ ....

لا يهمّ. فقط أن يكون متينا

ومناسبا لقدمي الولد".

***

من بين رتل الرجال العائدين كان ثمة رجل يقترب .. رجل واحد يعرفه الغلام جيدا (انه أبوه) ما أن لمحه حتى ضـــحكت عيناه، وفي عجل **نزع مداســه البالي عن قدميه ورمي به بعيدا باتجاه الشـمس الهاربة** ... وطفق يركض حافي القدمين، غبطا يذرّ خلفه أقواسا من غبار طفيف.

***

أمام ساحة البيت شرع الغلام يفرك قدميه بالماء والصابون فيما عيناه لا تفارقان الحذاء الجديد .. وبعد أن نشّ قدميه من البلل ارتدى جوربا نظيفا .. بينما بدت المرأة مطمئنة وهي تلقم التنور ذا اللهب القوي الرائحة بقطع من الحطب لحظة أن طفق الولد مبتهجا يعالج حشـــر قدميه في جوف الحذاء الجديد مرة بالضغط وأخرى بضرب قدميه على الأرض كما الناقة الرفوس.
حاول ذلك مرارا وتكرارا وبكل ما أوتي من قوة، لكن
الحذاء كان ضيقا، ضيقا إلى حدّ الألم الذي لا يطاق.

عندها **أحس الغلام بشـيء يخفق/ شـيء ما ينكسـر في داخله ....**

لحظتئذ جهم وجهه، وتلون بلون عصافير مضروبة ببنادق صيد/ أو بحجارة مقاليع/

وجه جمرة في ماء .... هكذا شعر الغلام ثم رمى بصره هناك حيث يرقد ثعبان أصـــلة خرافيّ متقمصـــا شـــكل ليل ذي قمر غائب.

<.>

(2)

عبد الرحيم

- **يا** عبد الرحيم

يا عبد الرحيم ...

لكنه مرق بخفة ولم يسمعني.

كنت عائدا لتوي، بعد أن انتهت الحرب أو كادت تنتهي، عدت يحملني الشـــوق. فالمرء هناك يحاصـــره الخوف والشعور الدائم بمواجهة الموت ويهزّه الحنين.

عدت مشـتاقا لأمّي وبلدتي وأصـدقائي الطيبين - هذا كل شـــيء - لكن عبد الرحيم قد توارى عنّي بجدار ما لمبنى لم أعهدة من قبل.

عبد الرحيم من أصـــدقائي القدامى الذين تربطني بهم أواصـــر حميمة في هذه البلدة الصـــغيرة التي انفتحت عيناي على وجوهها وأشجارها ومنازلها الدافئة.

حملت (الكتّ العسـكري) وهرولت مغادرا محطة الحافلة. فلمحته يقف عند الرصـــيف المحاذي للجدار الذي واراه عنّي منذ قليل. كان ظهره هو ظهره، وكتفاه هما كتفاه، ومعطفه أيضا. إن صاحبي عبد الرحيم لم يتغير. صحت مجدّدا: "يا عبد الرحيم". فلم يعرني أدنى التفاتة. اقتربت أكثر. وضعت الكت على الرصيف ثم لكزته بيدي على كتفه وأنا أبتسم.

وبخفة استدار إليّ: وجه جاف. عينان قاسيتان.

كان وجهه لا يشبه وجهه.

<.>

(3)

عودُ ثقاب

كان الوقت ليلا عندما أقفل الســـجان باب الزنزانة. تاركا السـجين لوحده موليا ظهره للجدار الوسـخ. فيما كان ثمة ضـوء باهت يتســـلل من باحة الســـجن مندلقا عبر كوة باب الزنزانة. ساقطا على الأرض الضيقة مشـكلا مستطيلا من النور الناعس. أولج السجين أصابع يده مابين جرابه ولحم ساقه وأخرج عقب سـيجارة كان قد عثر عليه عشـية اليوم أثناء تكليفهم له بتنظيف المرحاض. ثم بحث بين طيات بطانيته عن عود ثقاب كان قد أخفاه منذ يوم أمس. لكنّه لم يعثر على أيما شـــيء ســـوى القمل.

بعد هنيهة هرش جلده وتثاءب بحرية ثم نام. حلم بجبل من أعواد الثقاب، وفوق الجبل امرأةٌ وحيدة تشتعل.

<.>

البيضاء 10 مارس 1982

نسيج العنكبوت

منذ القدم بدأت الحياة بحكاية صغيرة.

حـدث ذلـك قبـل أن تختفي الحكـايـات من على وجـه الأرض. فثمة أسطورة أفريقية تقول: بأنه في الماضي السحيق لم تكن

هناك حكايات على هذه الأرض. لأن الملك الجبار الذي يعيش في كوكب آخر. هناك، حيث تلمع النجوم في السـماء البعيدة، قد أخفى جميع الحكايات في صـندوق ذهبي لا يفتح أبدا إلا بمعجزة السحر، خبأه بجوار عرشه الملكي.

لكن الرجل العنكبوت كما تقول الأسـطورة كان يبحث عن حكايته الخاصـة. لهذا صـنع سـلما من نسـيج خيوطه الرقيقة، القوية وصعد إلى السماء القصية ليسترد حكايته الضائعة. لأنه يعلم أن الحكاية مهما اختفت بعيدا عن مشـيئة السـرد، سـتظل تنمو بهدوء خفيّ.

فهي أمّنا، قال الرجل العنكبوت فيما كان يصـعد قويا. وهي لغتنا الأولى التي حلقنا في طفولتنا بأجنحة خيالها في فضاء الأساطير الغريبة.

وتعلّمنا مفرداتها البهيجة، وترانيمها المرحة من أفواه جداتنا، تحت قماشـة ليلنا الحالم. لهذا سـتظل الحكاية تنمو كأنها ربة معنى يتّسع رحمها لإيواء الكون بأسره.

***

الحكاية وحدها هي المعرفة الأولى التي استدلّ بها الكائن على تعلّم الأسـماء، ومعرفة العناوين. لذا صـنع كل منا حكايته الخاصـة به داخل هذا العالم المتقلّب الذي يتشـكّل سـياقه من سلسلة من الحكايات.

ونحن حين نكتب قصائدنا إنما نحاول وبضع كلمات متشابكة صـناعة ذلك السـلّم الأسـطوريّ الذي نسـجه من قبل: الرجل العنكبوت، ليوصل الأرض بالسماء.

***

لهذا سيبحث كل منا عن حكايته التائهة، التي خبأها الملك في غرف المتاهة، وفي موضع مجهول وغامض، لا يعرف سرّ مغاليقه إلا من كانت لديه الإشـارة السـحرية التي تتألف من بضـعة حروف مصـقولة، لا تعبأ كثيرا بضـراوة الزمن؛ لأنها على يقين بأنه سـوف لن يكون أمام الآلة الغبية التي قدّت من مادة زائلة سوى الفناء، ولن يبقى شيء.

سوى الحكاية وحدها.

<.>

سواني بني آدم

يوليو 1986

يناير 1981 _____

بالكاد كان ضجيج محركات طائرة اليوشن يتيح لي التقاط صـوت نائب العريف الذي يجلس بمحاذاتي وهو يفضـي بحنينه لرؤية أطفاله وزوجته؛ وقد بدا فرحا عندما شـــرعت اليوشـــن

تحلّق عاليا فوق صـحراء آتيا* ولمّا أدرك بأنّني لا أسـمعه جيدا لاذ بالصمت.

كان البرد في جوف الطائرة شـــرســـا لا يطاق فتكومت داخل معطفي العسـكري بعد أن سـحبت من حقيبة الظهر نسـخة رثة الحواف من رواية: يوري باسـترناك (الدكتور زيفاكو)، التي كانت حينئذ ترافقني أينما أذهب. لكن لذاذة اللحظة تلك تبدّت أكثر انقيادا لغواية التذكّر، ربّما لأن أسباب وجودي على متن الطائرة الضخمة كانت وثيقة الصلة بمشهد شديد الطرافة،

حدث في الليلة قبل البارحة.

***

في بلدة آتيا، وبعد انتهاء المعارك الطاحنة تعرفت وبمشـيئة الصـــدفة وحدها على كهل ســـوداني يدعى الحاج (عيســـى الضـاوي) كان كلّما نودي بالحاج لبّى دونما حاجة لذكر الاسـم. وهو رجل مهووس بأخبار المتصـوّفة. يقتني بضـعة كتب قديمة ومخطوطات شـتى سـوّدت بخطوط عتيقة تتعذّر قراءتها. وكان الشـيخ يروي باقتدار لا يعوزه السحر سير الحلاج، والسهروردي المقتول، والشـيخ محي الدين بن عربيّ، ويحفظ عن ظهر قلب اشعار المتنبّي، وابن الرومي، وأبي العلاء المعرّي، الذي يستأثر

منه بشغف خاص، ناهيك عن ذاكرته السخية في سرد التاريخ الشـــفوي المترع بعذوبة الأســـاطير ونكهة الخرافات العجيبة .....

كذلك كانت تشي تفاصيل هجرته الغامضة من الفاشر إلى آتيا التي ينتشـي في سـردها غالبا بعد القدح الثالث من المريسـة* بقصة حب تائهة في مسارب العشّاق المجانين. وثمة أيضا لدى الحاج انشــغالات أخرى كمزاولة الســحر والتداوي بالأعشــاب وقراءة الطالع. ومنها كان يتدّبر مصدر رزقه وقوت عياله.

في الليلة تلك كنت في ضــيافة الحاج تقوم على خدمتنا (فطّوم) كبرى بناته. وهي شـاعرة عروضـية دأبت دونما كلل أو ملل على الاســتماع لأحاديثنا، منتظرة في لهفة الســانحة التي يأذن فيها والدها لتلقي على أسـماعنا آخر ما نظمته من قصـيد. غير أن طعم قبلاتها الممزوجة بنكهة الكركدي كان مذاقه أكثر حلاوة من نظمها الســاذج وخيالها الفقير. ما أن ختمت فطوم آخر قوافيها التي سمعتها على مضض، حتى شكرت الحاج على كرمه مسـتأذنا بأن يسـمح لي بالانصـراف. ولاسـيما أن عقارب ساعتي قد تخطّت التاسعة.

***

رافقتني فطّوم حتى نهاية درب الزقاق، كان عطرها نفاذا وحارا، لفحتني نسمات باردة طوقتها برفق منتشيا بمذاق الكركدي ثم ودعتها ومشيت وحدي ضاربا دروبا ترابية محاطة بأسوار من طوب تفوح منها روائح البخور والمريسة والطبيخ. كان أخمس بندقيتي الكلاشنكوف يحدث خشخشة كلّما لامس جعب نطاقي وأنا أمشي سكران وحذرا من غدر الكلاب واللصوص، فاختراق ليل آتيا وحيدا يعد مغامرة محفوفة بالمهالك. كان عبد القادر يرافقني أحيانا، لكنه اليوم أبى متذرعا بصيانة رشاش الناقلة، فحشوت مخزنا إضافيا بالذخيرة وخرجت وحدي.

فجأة تناهت إلى مسمعي أصداء موسيقى مرحة، أعرفها جيدا، وكدت أكذّب أذنيّ شاكا في تأثير مريسة الضاوي التي أكثرت منها غير أنه ما لبثت أن بدأت تتضح ترانيم النغم الحافل بالمواعيد الجميلة. ثمة أيضا أصداء صفير وتصفيق ولغط. وكنت كلما دنوت لاحت لي أضواء مصابيح كاشفة وظلال جموع غفيرة من أفراد الوحدات وقد تحلقوا بهيئة دائرة كبيرة. كان لحظتها منشّط الحفل يعلن عن تقديم وصلة غنائية أخرى.

انضـــممت إلى حلقة المتفرجين: " وبنك يا عمّاري". وحين التفتّ رأيت عبد القادر، (أحد أفراد ســـريتي) يبتســـم لي، فصـافحته وأنا أكثر اطمئنانا بأنني لن أعود بمفردي إلى موقع كتيبتي الذي يبعد بضـــعة كيلو مترات. وما أن انتهت الفرقة من تقديم وصـــلتها الغنائية حتى وجدتني أخترق الحشـــد مندفعا باتجاه الركح مســـتأذنا منشـــط الحفل أن يســـمح لي بإلقاء قصـيدة شـعرية. ووسـط تصـفيق وهتاف المتفرجين ناولني المنشـــط ناقل الصـــوت؛ ففاجأت الجمع الذي كان كما يبدو يتوقّع سـماع قصـيدة من الشـعر الشـعبي بإلقاء نوع آخر من ســـلالة الحداثة. لكن يبدو أن مفرداتي التي لامســـت الحرب والحنين إلى الأمهات والأصـــدقاء قد أثارت فضـــولهم وألهبت حماستهم التي هيّجت رغبتي في إلقاء المزيد من قصائد النثر القصار التي كتبتها هناك.

***

أذكر أنني في ذلك الزمن كنت ســـادرا (وعلى نحو ما)، في الانتقام من الحياة التي شـــردتني، والظروف الظالمة التي تركت في روحي ندوبا كثيرة، وأخطاء لا تمّحى؛ فكان اللجوء للقصـيدة سـلاحي الوحيد الذي وهبني قوة اضـافية

لجرّ أربعة أنهار ثرية لكي أروي صــحراء تلك الروح الجهمة والتفوّق على ذلك الشــيطان الذي كنته في مرحلة تعيســة من عمري يتعذّر عليّ توصــيف مكابداتها. إلى الحدّ الذي يجعلني أســتغرب الآن كيف أمكنني أن أتحول من مجرد كائن بائس ومهدّم، شــبه أمّي، إلى مروّض خيال يؤنســن وحوش القصــيدة .. ففي الوقت الذي حمل فيه الآخرون المزيد من التموين والثياب. وحشوا حقائبهم بعلب العصائر والبســكويت .. حملت معي أعوادا من حطب "بســترناك" واستعرت من الماغوط عصفوره الأحدب .. وما تيسر من مطر الســيّاب، وبضــع حبات من قلادة شــهرزاد. ولفيروز خبأت قمرا وحيدا ومخيلة جامحة نؤثث عالما آخر خارج الخراب.

***

في صبيحة اليوم التالي استلمت بفرح تكليفا من قيادة المنطقة العســكرية يأمرني بالذهاب في مهمة قصــيرة إلى طرابلس لجلب مجموعة من الكتب كنواة لتأســيس أول مكتبة عامة في مدينة (آتيا)، وقيل لي بأن مغامرتي الشــعرية في

الليلة البارحة قد تركت صـــداها الطيب لدى آمر المنطقة العســـكرية. فجاءت هذه المأمورية تكريما أكثر من كونها تكليفا.

أخيرا حطّت بنا ال (يوشــن) في مطار طرابلس. واختفى دويّ محركاتها المزعج. أيقظت جاري الذي كان مســـتغرقا في النوم، ثم وعلى عجل غادرت جوف ال (يوشـــن) بخفة مرحة محتفيا بنفسي وأنا أصعد إلى الحافلة مخفورا بمباهج وأمنيات صــغيرة تشــي بأســرار خفية. في الطريق أتاحت لي النافذة رؤية المزارع العامرة بأشـــجار الزيتون والبرتقال واللوز. رأيت أيضـــا صـــبية يحملون حقائبهم المدرســـية. رأيت امرأة ترعى الخراف. وأيضـــا رأيت أول المطر، فقد كانت الســـماء مزينة بقوس قزح وهي تمطر على مهل في تربة روحي التي جفّت. حينها تذكّرت أمّي وأخوتي الذين لم أرهم منذ عدة أشـــهر. تذكّرت أصـــدقائي الحالمين وأمســـياتنا التي كنّا نقضـــيها كل خميس فوق الذرى الخضـــراء. ثلاثة شـــبّان: جنديّ بيدين موشومتين وذاكرة نازفة. وطالب تأتأ يجففّ ورودا في شوارع الكتب، ومعلّم صبيان يبحث عن أمّ أخرى.

***

كنّا نقرأ أشـعار السـياب وعلي الرقيعي ونقتفي مسـارب ييفتشـينكو، ونسـتعيد في أسـى النبضـات الأخيرة في أغاني لوركا. ونفتّش عن علاقة ما بين صـلب الحلاج وانتحار مايا كوفسـكي مفتونين بمجنون الزا ورحلات بـابلو نيرودا نطلق صـراخنا البارق في عتمة الليل. ثم فجأة انفرطنا بين القصـائد والنسـاء والعواصـم مثل عقد من حبّات المطر تبعثرت خرزاته في وحشة العالم، حيث ما من أحد ينتظرنا سوى أمهاتنا.

***

في ميدان الشـهداء توقّفت الحافلة. كانت سـرّة طرابلس تغسل برفق برذاذ ناعم يدفئ بردها بقماشة شفيفة من مطر وعصـافير مرحة، غمرتني لحظتها مشـاعر لذيذة ومسـرّات واعـدة وأنـا أمشـي بزهو، حرا وواثقـا من مهـابـة قيـافتي العسـكرية وشـعر رأسـي الذي تهدّل حتى كتفي تاركا العنان لحـذائي الثقيـل مغمورا بـالنشـوة وطراوة البلـل. وأنـا أمرق سالكا سوق المشير منعطفا عبر أزقة المدينة القديمة. منتشيا برائحة التراب والتاريخ والأبواب والشـرفات التي لم أرها منذ زمن. واشـتهيت لحظتها أن تأويني غرفة صـغيرة هنا، ولتكن

ضـيقة وعطنة. فقط غرفة صـغيرة وامرأة وحيدة. وحيدة بلا أحد سواي، أبكي على صدرها وأنزف كل عطب أيامي المرة، امرأة وحيدة وطيبة أدشّــن ذاكرتها بالقصــائد والأنهار والقبل. أحـدّثها عن حي المهاجرين وأكواخ بوزغيبة وحوش التيتلي. عن بنغازي المالحة التي شـهدت في شـهر كهذا سـقوط أبي (العريف أحمد السنطا انطونيو) عن صهوة دراجته النارية يوم أن غادرنا فجأة ليتركنا وحدنا لقوارض الريح وبراثن الفاقة ونفايات الأخطاء.

***

كنـت أمشـــي وحيـدا وحزينـا غير عـابئ بثقـل حقيبتي العسـكرية، ونظرات المارة وهي تسـتنطق قامتي التي تشـي دونما إضـمار بأنني قد جئت لتوي من أقصـى الجنوب. وبدوت كأنني أحلّق بجناحين من ضوء وأنا أضرب الشوارع والساحات، حتى توقفت لهنيهة بمحاذاة الكورنيش سـاحبا البحر بأنفاسـي وأنا أنظر إلى السفن الراسية وقوارب الصيادين فيما السراي تنتصــب شــامخة ورائي، هذه القلعة التي حطّمت غطرســة القراصـــنة وهزمت الغزاة. بعد حين توجّهت صـــوب حديقة الغزالة وجلســـت قليلا على إحدى مقاعدها المزروعة بين

الأشـــجار والحشـــائش. لكنني ما لبث أن وقفت بخفة حين طرأت عليّ فكرة ما، فاســتوقفت أحد المارة ســائلا إياه عن مقر صـــحيفة الجماهيرية، تلكأ الفتى في أول الأمر. غير أنه بعد لحظة قصـيرة ما لبث أن تذكّر المكان ناصـحا أياي بركوب ســـيارة أجرة. لكنّني اكتفيت بتســـجيل أســـماء الشـــوارع والتقاطعات ثم شـــكرته. وكم تمنيت حينها وأنا أعبر ميدان الجزائر أن تواتيني الشجاعة لأصرخ بأعلى صوتي بأنّني لست جنديا وكفى. بل أنا شاعر.

***

احتجت إلى قرابة ثلاثين دقيقة قبل أن أقف متســمّرا إزاء واجهة البناية التي تحوي مقر الصحيفة. شعرت بارتباك ووجل قبل أن أدلف إلى المدخل وقد غمرتني قشــعريرة ســرت في أوصـــالي. واكتنفتني مهابة تشـــبه تلك التي أحاطت بي، يوم ولجت ردهات مكتبة جامعة البيضاء. شيء ما كان أقوى منّي يشـلّ حواسـي أثناء صـعودي درج البناية. فما كدّت المح أسـم الصــحيفة المثبت على أول باب صــادفني بالطابق الأول حتى ترددت في أول الأمر. واحتجت إلى بضــع لحظات حتى ألتقط أنفاسي وأستعيد شيئا من شجاعتي. ثم ضغطت جرس الباب

محاولا قدر الإمكان السيطرة على ارتباكي. وفجأة فتح الباب، لأجدني أقف وجها لوجه إزاء الكاتبة والشاعرة فوزية شلابي التي ما أن عرفتها بنفسي حتى رحبت بي بتلقائية حميمة وابتسامة ودودة. وهكذا كانت فوزية شلابي هي أول شخصية أدبية وإعلامية التقي بها في طرابلس. كذلك كانت صحيفة الجماهيرية هي أول مؤسسة صحفية وإعلامية أدخلها في حياتي. وكانت تلك إشارة أخرى لها تأثيرها في حياتي ونسق علاقتي بطرابلس والشعر والحياة.

<.>

طرابلس. صيف 1983

المحتويات

- مقدمة في مديح الحكاية
- مديح الأذى.
- نثر الغابة.
- الذئب.

- بيت الشمس.
- شمس صغيرة.
- ابنة الرمان.
- عواء الفصول.
- الغراب.
- عن القمر والسيف.
- من حالات الجمر.
- الحذاء الأحدب.
- عبد الرحيم.
- عود ثقاب.
- نسيج العنكبوت.
- يناير 1981.

_____ صدر للمؤلف

1. قيامة الرمل / شعر.
2. كتاب المقامات / شعر.
3. رجل بأسره يمشي وحيدا/ شعر.

4. السور / مسرحية.
5. فعل القراءة والتأويل / مقالات في النقد الأدبي.
6. منازل الريح / شعر.
7. ديك الجنّ الطرابلسيّ / شعر.
8. رحلة الشنفرى / شعر.
9. جنازة باذخة / شعر.
10. مشية الآسر / شعر.

مفتاح العمّاري

·ولد في بنغازي/ ليبيا. 16 يوليو 1956

· صدر له عديد المؤلفات في الشعر والسرد والمسرح والمقاربات النقدية.